قيم الفروسية في أشعار عنترة العبسي وأبي فراس الحمداني

(دراسة موازنة)

د/ زهير عبدالله عبدالله بازخ مدخلي

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بقسم اللغة العربية وآدابها- كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بجامعة جازان- المملكة العربية السعودية

الملخص:

يتناول هذا البحث موازنة بين شاعرين اتفقا واختلفا، هما: عنترة بن شداد العبسي، وأبو فراس الحمداني، اتفقا في البطولة والفروسية، كما في التعبير عن بطولتهما شعرًا، فهما فارسان بطلان وشاعران مُفلِقان، واختلفا في البيئة الزمنية ومؤثراتها، فعنترة من شعراء العصر الجاهلي وفرسانه، وأبو فراس من شعراء العصر العباسي وفرسانه.

أسفرت الموازنة عن تشاكل الرؤى الشعرية لديهما في قيم البطولة الحقة، والقدرة على القيادة، وتحليهما بقيم الفارس النبيل، كالعفة والكرم والنجدة وغيرها من القيم الفردية الذاتية، كما كشفت الموازنة بين شعريهما عن التشاكل بينهما في مواقف الاتصال مع الآخر/الزعيم والملك، أو المحيط الاجتماعي (الرجل/ المرأة)، أو الأقارب والأقران.

الكلمات المفتاحية: الفروسية، عنترة وأبو فراس، قيم الفروسية، الموازنة، العصر الجاهلي، العصر العباسي.

Abstract

The course of this research revolves around the balance between two poets who agreed and disagreed، namely، Antarah bin Shaddad Al-Absi and Abu Firas Al-Hamdani. They differed in the time range، so Antara was one of the poets and knights of the pre-Islamic era، and Abu Firas was one of the poets and knights of the Abbasid era.

The balance was manifested in that expressive case، which is problematic for them، and which reveals the true and exemplary values of heroism، such as heroism، courage، feet، and ability to lead، and their endowment with the noble knight's values of chastity، generosity، rescue and other individual self-values. Contact with the other leader and king or social environment (man / woman) or relatives and peer.

Those noble values were manifested in the Persian poets، and they were similar in many of their processes، and there remained clear points of difference، both at the level of artistic performance، or at the level of the degree of presence and absence of some features، and the research showed all that and elaborated on it

.

keywords: Equestrianism، Antara and Abu Firas، equestrian values، balancing، pre-Islamic era، Abbasid era.

المقدمة:

تعد الموازنة بين الشعراء فنًّا راسخًا في الدراسات الأدبية والنقدية العربية منذ الآمدي وموازنته بين أبي تمام والبحتري، ربما بسبب ما تنطوي عليه هذه العملية من تشويق وإمتاع للمتلقي الناقد الذي يستبطن نواحي التشاكل والاختلاف بين الأعمال الأدبية المتقاربة فنًّا وموضوعًا(١).

ومن الأعمال الأدبية العربية القديمة التي تستدعي الدراسة النقدية الموازنة لتقاربها في الفن والموضوع؛ جُل أشعار الشاعرين العربيين المشهورين: عنترة بن شداد العبسي، وأبي فراس الحمداني، خصوصًا تلك الأشعار التي تغنّيا فيها بقيم الفروسية التي تعد مفخرة من مفاخر الإنسان العربي، ومظهرًا من مظاهر فتوته وعزته، واكتمال شخصيته(٢).

لقد تهيأت لهذين الشاعرَين الفارسَين بيئة حربية كانت هي ساحة تألقهما وبزوغ نجميهما، ومكنتهما من إبراز سماتهما وقيمهما الفروسية، فبيئة عنترة كانت ساحة للصراع بين قبيلته والقبائل الأخرى، وذلك على عادة القبائل العربية في العصر الجاهلي، وبخاصة في الحرب الشهيرة (داحس والغبراء) التي دارت بين عبس وذبيان(٣)، وبيئة حارث الحمداني (أبي فراس) كانت كذلك بيئة صراع بين العرب والروم، كما مثّل تمرد بعض القبائل العربية على الدولة الحمدانية وقودًا آخر لهذا الصراع(٤).

وثمة عنصر تشاكل آخر بين هذين الشاعرين الفارسَين هو وحدة المعاناة، فعنترة ولد في جوٍّ عبودي يستعبد الوالد ابنه إن كان ابن أمة ولا يمنحه حريته، فضلًا عن عبودية

(١) ينظر: ظاهرة حديث الشعر عن الشعر من العصر الجاهلي حتى العصر الأموي، عبدالعزيز بن عبدالله المجراشي، مطبعة سفير، الرياض، ١٤٣٣هـ، ص١٨، ١٩.

(٢) ينظر: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب المجذوب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٠م، ج٣، ص٨٥٥، والفروسية في الشعر بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ، منى بنت بخيت بن عويد اللهيبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة، ٢٠٠٨م، ص٣.

(٣) ينظر: تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط١١، (د. ت)، ص٣٦٩، ٣٧١.

(٤) ينظر: شعر الروميات لأبي فراس الحمداني: دراسة أسلوبية، عايدة سعدي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٩م، ص٣، ٨.

أخرى هي عقدة اللون الأسود عند عنترة؛ وحرمانه بسببه من الزواج بمحبوبته عبلة[١]، وأبو فراس الحمداني عانى حياة اليُتم صغيرًا بعد أن مات أبوه وكفلته أمه، أمه التي عانت وعانى معها الاضطهاد الاجتماعي بسبب أصلها الرومي، ثم معاناته آخر حياته أسيرًا لدى الروم وتأخّر مفاداة سيف الدولة له، حيث مكث في السجن بضع سنين.

بين الشاعرَين الفارسَين أيضًا عنصر تشاكل ثالث، هو طريقة وفاتهما، فقد قتلا غدرًا وغيلة، الأول قتل غيلةً بإطلاق سهم عليه من قبل شخص اسمه وزر[٢]، والثاني قتل غدرًا على يد (جوشن) أحد عبيد أبي المعالي بن سيف الدولة[٣]؛ لتكتب نهايتاهما التراجيدية بتشابه تام بعيدًا عن ساحات الفداء والذود عن القبيلة عند عنترة، أو ساحة الدفاع عن الإسلام وحماية وحدة الدولة عند أبي فراس.

ويتجسد رابع التشاكلات بينهما؛ في جمعهما بين الفروسية والشاعرية، حتى إن معظم شعرهما ذهب في اتجاه إبراز بطولتهما، وقيم الفروسية عندهما، وتخليد وقائعهما ومعاركهما، ووصف معاناتهما.

أما التماثل الخامس بينهما؛ فيكمن في تمثيلهما الأدبي لعصرين من أزهى عصور التاريخ الأدبي العربي ازدهارًا –على الرغم من تباعدهما– وهما العصر الجاهلي والعصر العباسي، الأمر الذي انعكس على طبيعة عطائهما الشعري تألقًا وفرادة.

تلك الظروف المتحدة أنتجت فارسَين ملآ سمع الشعر العربي وبصره، وهيأت مجالًا خصبًا للدرس النقدي، ومنها هذه الدراسة الموازِنة بين قيم الفروسية عندهما.

---

(١) ينظر: ظاهرة الاغتراب في شعر عنترة بن شداد: دراسة موضوعية فنية، زهير بن عبدالله مدخلي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبدالعزيز، جدة، ٢٠٢٠م، ص٥٢.

(٢) الماضي المشترك بين العرب والغرب: أصول الآداب الشعبية الغربية، أ. ل. رانيلا، ترجمة: نبيلة إبراهيم، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع ٢٤١، ١٩٩٩م، ص٢٢٥.

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، أبو فراس الحمداني، عني بجمعه ونشره وتعليق حواشيه ووضع فهارسه: سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، بيروت، ١٩٤٤م، ص١٤، ٤٦٨.

الدراسات السابقة:

لم يعرض أحد –على حد علمي المتواضع– للموازنة النقدية بين هذين الشاعرين، وذلك على الرغم من تشابه أدبيهما في موضوع الفروسية والبطولة والحميَّة لقومهما، وفي حالة الاضطهاد الاجتماعي التي عاشاها، وفي تمسكهما –رغم ذلك– بقيم الفروسية الذاتية، واستمرارهما في الحفاظ على قيمهما الاجتماعية التي ظلا يتعاملان بها مع قادتهما وأمرائهما في سائر الأحوال، بيد أنا وجدنا دراسات موازِنة بين أبي فراس وغيره من الشعراء، ومن هذه الدراسات:

– دراسة (البهادلي، ٢٠١١ م). الفروسية بين أبى فراس الحمداني والسعدي الألبيري.

– دراسة (اللهيبي، ٢٠٠٨). الفروسية في الشعر بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ.

كما وجدت عدة دراسات عرضت لشعر عنترة، منها:

– دراسة (مدخلي، ٢٠٢٠م). ظاهرة الاغتراب في شعر عنترة بن شداد: دراسة موضوعية فنية.

وقد استهدى بحثنا هذا ببعض الإجراءات المنهجية التي اتبعتها تلك الدراسات في تحليل قيم الفروسية وتتبعها.

مشكلة البحث:

تتجلى مشكلة البحث في السؤال الأساسي التالي:

- ما نواحي التشاكل والاختلاف في القيم الفردية والجماعية للفروسية عند الشاعرين؟

ويتفرع عن هذا السؤال الرئيس السؤالان التاليان:

- ما نواحي التشاكل والاختلاف في القيم الفردية للفروسية عند الشاعرين؟
- ما نواحي التشاكل والاختلاف في القيم الجماعية للفروسية عند الشاعرين؟

أهداف البحث:

تمثل هدف البحث في الكشف عن جوانب التشاكل والاختلاف في القيم الفردية والجماعية للفروسية في شعر الشاعرين الفارسين: عنترة بن شداد العبسي وأبي فراس الحمداني.

منهج البحث:

استخدم الباحث التحليل الموضوعي الفني الموازِن لمعالجة محاور البحث.

خطوات البحث:

تناول البحث القيم الفردية والجماعية للفروسية في شعر هذين الشاعرين بالدراسة الموازِنة وفق المخطط الآتي:

١. القيم الفردية للفروسية عند الشاعرين:

١.١. الشجاعة والبطولة.

١.٢. النبل ومكارم الأخلاق.

١.٣. النجدة والحمية.

١.٤. منازلة الأبطال وقبول تحدي الأقران.

١.٥. القيادة.

١.٦. شهود الوقائع.

٢. القيم الاجتماعية للفروسية عند الشاعرين:

٢.١. قيم تجاه المرأة (ذوات الأرحام–الحبيبة–الأسيرة).

٢.٢. موقف الشاعر الفارس من قادته (سيد قبيلته/أمير الدولة).

٢.٣. قيم التفاعل الاجتماعي.

١. القيم الفردية للفروسية عند الشاعرين:

١.١. الشجاعة والبطولة:

لا شك في أن المطلب الأساسي للفارس هي شجاعته، وما كان ليكون ذكر للفارسَين عنترة وأبي فراس دون توافر هذه القيمة الأساسية في مكوناتهما الشخصية منذ مرحلة الشباب، فهذا عنترة يذود عن حمى قومه وهم في غزوتهم خارج القبيلة، ويواجه الغزاة المعتدين بمفرده ويهزمهم، وبالمثل خاض أبو فراس أولى معاركه مع أعداء قومه وهو ما يزال في مقتبل شبابه، وقد منحتهما السمات الجسدية مقومات البطولة الحقة، فالفروسية والبطولة تلزمهما قوة جسدية تظهر في الضراب والطعان والكر والفر، ومن ثم فإن قيم البطولة هذه مكنت الفارسين من الوصول إلى نيل تقدير قومهما ومجتمعهما، ومن الحصول على مراكز مهمة في المجتمع؛ إذ مُنح عنترة كنية (أبي الفوارس) في فترة مبكرة، وعُيِّن أبو فراس واليًا على (مَنبِج) من أعمال حلب وهو ابن تسع عشرة سنة[١].

ولما كان هذان الشاعران قد جمعا بين مهارتي اللسان والسِّنان، باعتبار هاتين المهارتين علامة الفروسية المكتملة[٢]؛ فإنه بالإمكان الاستدلال على القيم الفردية لفروسيتهما من شعرهما الخالد الذي سطرا به مفاخرهما البطولية وسماتهما الحربية متجلّية في الوقائع التي خاضاها وصوّراها في بيئتيهما (الجاهلية والعباسية)؛ لنشهد طعنة عنترة إذ يقول:

قد أطعنُ الطعنةَ النجلاءَ عنْ عُرُضٍ تَصْفِرُّ كفُّ أخيها وهو منزُوفُ [٣]

وطعنة أبي فراس إذ يقول:

قصدنا على الأعداءِ وسطَ ديارهمْ بِضَرْبٍ يُرَى من وَقْعِهِ الجوُّ أَغْبَرَا [٤]

(١) ينظر: شعر الروميات لأبي فراس الحمداني: دراسة أسلوبية، مرجع سابق، ص٣.
(٢) ينظر: كتاب الفروسية، شمس الدين أبو عبد الله بن القيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: مشهور بن سليمان، دار الأندلس، بيروت، ١٤١٧هـ، ص١٥٧.
(٣) ديوان عنترة، عنترة بن شداد العبسي، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، ، المكتب الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٧٠م، ص٢٧١.
(٤) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص١٩٨.

إن تولّد هذه الألوان المخيفة (صفرة كف القتيل– حمرة نزفه – غبرة جو المعركة) من وراء ضرباتهما؛ ليوحي بتوافر قيمة البطولة والفروسية الحقة لـديهما؛ إذ السـيف لا يعمل كل هذا إن كان الضارب به رعديدا، يقول عنترة:

وسَيفي صارمٌ قبضتْ عليهِ أشاجعُ لا ترى فيها انتشارا (١)

وهي سمة جسدية ظاهرة عند أبي فراس في نحو قوله:

مَتى تُخْلِفُ الأيامُ مِثلي لَكُم فَتًى طَويلَ نِجادِ السَيفِ رَحبَ المُقَلَّدِ (٢)

والفارس عنترة يقتحم الصعاب ولا يفكر بالنتائج ولا يندم من سوء العاقبة؛ إذ يقول:

وإذا حُمِلتُ على الكريهةِ لم أَقُلْ عدَ الكَريهَةِ ليتَني لَم أفعَلِ (٣)

ويصف أبو فراس نفسه بأكثر من ذلك قائلًا:

وإني لَجَـــــرّارٌ لِكُـــلِ كتيبةٍ مُعَوَّدَةٍ ألّا يُخِلَّ بها النَّصـــــــرُ

وإني لنزّالٌ بِـــــــكلِّ مَخوفةٍ كثيـــــــرٌ إلى نُزَّالِها النَظَرُ الشَزرُ

فَأظمَأُ حَتى تَرتَوي البيضُ والقَنا وَأَسغَبُ حَتّى يَشبَعَ الذِئبُ والنّسرُ (٤)

وفي هذه المفارقة بين ظمأ الفارس الحمداني وارتواء عدة حربه من جهـة، وبـين جوعه هو وشبع وحش الفلا من جهة أخرى؛ كشفٌ عن قوة الارتباط بين الفروسية والفن الذي يستقصي تفاصيل صورها حتى يبلغ بها المنتهى من الوضوح والبيان.

١.٢. النبل ومكارم الأخلاق:

تظهر مقومات الفارس الأنموذج حين يتبيّن لنا ما يشتمل عليه من قيم نبيلة ومكارم أخلاق في تعامله مع الآخرين، ومن ثم نلمح لدى هذين الشاعرين الفارسين قيمًا أخلاقيـة نبيلة يشتركان فيها، أهمها: (العفة، والكرم، والعفو، والزهد عما فـي أيـدي الآخـرين)،

(١) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٢٣٤.
(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٧٩.
(٣) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٢٥٢.
(٤) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٢١٢.

ويخلد شعرهما أمثلة من هذه القيم الرفيعة التي لا تليق إلا بالفرسان، من ذلك قول عنتـــرة معبرًا عن عفة نفسه وعزتها:

ولقد أبيتُ على الطَّوَى وأظَلُّهُ حتى أنالَ بهِ كريمَ المأكَلِ (١)

وقوله واصفًا عفافه عن الطمع في الغنائم:

يُخبركِ من شَهِدَ الوقائعَ أنني أغشى الوَغَى وأَعِفُّ عِند المَغنَم (٢)

ويقول معبرًا عن كريم طباعه وقيمه الخلقية الرفيعة في عفته عن أعـــراض قومـــه عمومًا وجيرانه خصوصًا:

ما استَمتُ أنثى نَفسَها في مَوطِنٍ حَتّى أوَفّي مَهرهَا مَولاها

وَلَما رَزَأتُ أخَا حِفاظٍ سِلعَةً إلّا لَهُ عِندي بها مثلاها

أغشى فَتاةَ الحَيِّ عِندَ حَليلِها وَإذا غَزا في الجيش لا أغشاها

وَأغضُّ طرفي ما بَدَت لي جارَتي حَتّى يُواري جارَتي مأواها

إنّي امرُؤٌ سَمحُ الخَليقةِ ماجِدٌ لا أتبعُ النَفسَ اللَجوجَ هَواها (٣)

ويقول أبو فراس معبرًا عن هذه القيم نفسها:

وَلَكِنَّني والحَمدُ للهِ حازِمٌ أعِزُّ إذا ذَلَّت لَهُنَّ رقابُ

وَلا تَملِكُ الحَسناءُ قلبيَ كُلَّهُ وَإن شَمَلَتها رِقَّةٌ وَشَبابُ

وَأجري فَلا أعطي الهَوى فَضلَ مِقوَدي وَأهفو وَلا يَخفى عَلَيَّ صَوابُ

إذا لَم أجِد مِن بَلدةٍ ما أريدُهُ فَعِندي لِأُخرى عَزمَةٌ وركابُ

صَبورٌ وَلو لَم تَبقَ مِنّي بَقِيَّةٌ قَؤولٌ وَلَو أنَّ السُيوفَ جَوابُ

(١) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٢٤٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٩.
(٣) المصدر السابق، ص٣٠٧، ٣٠٨.

وَقورٌ وَأحداثُ الزَمان تَنوشُني وَلِلموتِ حَولي جيئَةً وَذَهابُ
وَألحَظُ أحوالَ الزَمان بِمُقلَةٍ بها الصُدقُ صِدقٌ والكِذابُ كِذابُ
أنا الجارُ لا مالي بَطيءٌ عَلَيهُمُ وَلا دونَ مالي لِلحَوادِثِ بابُ
وَلا أطلُبُ العَوراءَ مِنهُم أصيبُها وَلا عَورَتي لِلطالبينَ تُصابُ (١)

وبهذا يتبين أن كلا الشاعرين تغنى بالقيم النبيلة نفسها، وأنه لا تنقصهما مروءة الفرسان، ولا كرامة الشجعان.

1.3. **النجدة والحميّة:**

معلوم أن من شيم الفارس تلبية نداء المستغيث، وهي القيمة التي تباهى بهما هذان الشاعران في أكثر من موقف، من ذلك قول عنترة:

وَمَكروبٍ كَشَفتُ الكَربَ عَنهُ بطعنةِ فيصَلٍ لَمّا دَعاني
دَعاني دَعوةً والخَيلُ تَردي فما أدري أباسمي أم كَناني
فَلَم أمْسِك بسَمعي إذ دَعاني وَلَكن قد أبانَ لَهُ لِساني
فكانَ إجابَتي إيّاه أنّي عَطفتُ عَلَيهِ خَوّارَ العِنانِ
بأسمَرَ مِن رماح الخَطّ لَدنٍ وَأبيَضَ صارمٍ ذَكَرٍ يَمانِ (٢)

وقوله:

لَمّا سَمِعتُ دُعاءَ مُرَّةَ إذ دَعا وَدُعاءَ عَبسٍ في الوَغى وَمُحِلَّلِ
نادَيتُ عَبسًا فاستَجابوا بالقَنا وَبِكُلِّ أبيَضَ صارمٍ لَم يَنجَلِ
إنّي امرُؤٌ مِن خَيرِ عَبسٍ مَنصِبًا شَطري، وَأحمي سائِري بالمُنصَلِ

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٢٢، ٢٣.
(٢) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٢٩٤، ٢٩٥.

إن يُلحَقوا أكرُر، وَإن يُستَلحَموا أشدُد، وَإن يُلفوا بضَنكٍ أنزِلِ (١)

وهو ما يصف به أبو فراس نفسه إذ يقول:

رَدَدتُ عَلى بَني قَطَنٍ بِسَيفي أَسيرًا غَيرَ مَرْجُوّ الإيَابِ
سَرَرتُ بِفَكّهِ حَيَّيْ نُمَيْرٍ وسؤتُ بني ربيعةَ والضِّبابِ
وما أَبغي سِوى شُكرِي ثَوابًا وإنَّ الشُّكرَ مِن خَيرِ الثَّوابِ
فَهَل مُثْنٍ عَليّ فَتى نُمَيرٍ بِحَلِّي عنهُ قِدَّ بني كِلابِ؟ (٢)

وقوله:

أَلا لَيتَ قَومي وَالأَماني كَثيرَةٌ شُهودِيَ وَالأَرواحُ غَيرُ لَوابِثِ
غَداةَ تُناديني الفَوارِسُ وَالقَنا تَرُدُّ إِلى حَدِّ الظُبى كُلَّ ناكِثِ
أَحارِثُ إِن لَم تُصدِرِ الرُّمحَ قانِيًا وَلَم تَدفَعِ الجُلَّى فَلَستَ بِحارِثِ (٣)

فكلا الشاعرين يتباهى هنا بأنه ينهض لنداء الغوث الموجه إليه من قومه عند الحوادث المخوفات، والمصائب المدلهمات، فيبادر إلى النجدة بلا تقاعس، فيتصدى لها نيابة عنهم معرضا نفسه للهلكة فداء لهم، ويتحقق له النصر في كل مرة، ممتنا بذلك كله على قومه، طالبا منهم بذل الشكر والتقدير الذي يفتقده منهم، وأن ذلك يكفيه منهم ثوابا وأجرا.

١.٤. منازلة الأبطال وقبول تحدّي الأقران:

وهي تمثل واحدة من أعلى قيم الفارس العربي، ومن ثم لا يخطر في باله الهروب من المواجهة، أو الانسحاب من التحدي، وفي ذلك يقول عنترة:

وَقَرنٍ قَد تَرَكتُ لَدى مَكَرٍّ عَلَيهِ سَبائِبُ كَالأُرجُوانِ

(١) المصدر نفسه، ص٢٤٧، ٢٤٨.
(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص١٧.
(٣) المصدر السابق، ص٥٦.

تَرَكتُ الطَيرَ عاكِفَةً عَلَيهِ كَما تَردي إِلى العُرسِ البَواني
وَقَد عَلِمَت بَنو عَبسٍ بِأَنّي أَهَشُّ إِذا دُعيتُ إِلى الطِّعانِ (١)

ويقول أيضًا:

ومُدَّجِجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِزَالَهُ لا مُمْعِنٍ هَرَبًا ولا مُستَسلِمِ
جادَت يدايَ له بِعاجِلِ طَعنةٍ بِمُثَقَّفٍ صَدْق القناةِ مُقَوَّمِ
وتَركتُهُ جَزَرَ السِّباعِ يَنَشنَهُ ما بينَ قُلَّةِ رأسِهِ والمِعصَمِ (٢)

وفي القيمة نفسها يقول أبو فراس:

وَمُعَوَّدٍ لِلكَّرِ في حَمسِ الوَغى غادَرتُهُ والفَرُّ مِن عاداتِهِ
حَمَلَ القَناةَ عَلى أَغَرَّ سَمَيذَعٍ دَخّالِ ما بَينَ الفَتى وَقَناتِهِ
فَالحَربُ تَرميني بِبيضِ رِجالِها وَالدَهرُ يَطرُقُني بِسودِ بَناتِهِ (٣)

ولا يطيش شعر أبي فراس عن تصيد حمائم المحسنات البديعية، فنجده هنا يطابق بين (بيض وسود) في مقابلة ظاهرة بين دوره في مقارعة الفرسان ومصاولتهم من جهة، وبين المصائب التي تطرقه وتنهال عليه من جهة أخرى، وهو بينهما منهمك لا يريم.

ومن ذلك أيضًا قوله:

أَلا أبلِغ سَراةَ بَني كِلاب إِذا نَدَبَت نَوادِبُهُم صَباحا
جَزَيتُ سَفيهَهُم سوءً بسوءٍ فَلا حَرجًا أَتَيتُ وَلا جُناحا
قَتَلتُ فَتى بَني عَمرِ بنِ عَبدٍ وَأَوسَعَهُم على الضّيفانِ ساحا (٤)

ولفظتا (الحرج) و(الجناح) هنا مقتبستان من القرآن، وفي هذا اللون من الاقتباس علامة على تأثير الدين في الشعر بعد الإسلام، وهو ما يخلو منه شعر عنترة.

(١) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٢٩٥، ٢٩٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٩، ٢١٠.
(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٥٤، ٥٥.
(٤) المصدر السابق، ص٦٨، ٦٩.

١.٥. القيادة:

من سمات الفارس القدرة على قيادة الجنود في المعارك، والمضي بهم نحو النصر، وهو ما توافر لدى شاعرَينا البطلَين أبي الفوارس وأبي فراس، والناظر في ديوانيهما يجد تخليدًا لقيمهما القيادية وإبرازًا لها.

لقد تمثلت قيادة أبي الفوارس عنترة في صور متعددة تدل على اندفاعه باتجاه إثبات ذاته، ومحاولة تجاوز النظم الاجتماعية التي أبقته خارج الاندماج مع محيطه، ومن ثم أراد بقيادته المعارك إثبات تفوقه وأهليته لهذا الاندماج، وأحقيته بأن يتسنّم أعلى المراتب الاجتماعية، ومن ذلك قوله:

وَصَحابَةٍ شُمِّ الأُنوفِ بَعَثْتُهُم لَيلاً وَقَد مالَ الكَرى بِطُلاها

وَسَرَيتُ في وَعَثِ الظَلامِ أقودُهُم حَتّى رَأَيتُ الشَمسَ زالَ ضُحاها (١)

إنه يصرح هنا بدوره القيادي الذي يتاح له في ميدان الحرب ويُحرم منه في زمن السلم، إذ يبرز أقصى مستوى من مستويات القيادة في أحلك الأحوال، حتى إن قيادته لا تني ولا تفتر، فهي تواصل الليل بالنهار.

ويبرز أقدميته وقيادته في أصعب المواقف وأشدها حين يتخلى القادة والفوارس الشجعان له عن القيادة ليقودهم إلى النصر، يقول:

وَلَقَدْ شَفَى نفسي وَأَبرأَ سُقْمَهَا قِيلُ الفَوَارِسِ وَيكَ عَنتَرَ قدِّمِ (٢)

والقيمة نفسها نجدها عند أبي فراس في قوله:

إِذا التَفَّت عَلَّي سَراةُ قَومي وَلاقَينا الفَوارِسَ في الصَباحِ

أقودُ بهم إلى الغمراتِ سَعيًا بَناتِ السَّبق تحتَ بَني الكِفاحِ (٣)

بيد أن المستوى القيادي هنا عند أبي فراس يقصر عن مستوى أبي الفوارس، فقيادته للجيش مقتصرة على الصباح بخلاف عنترة الذي يقود كتيبته مواصلًا الليل بالنهار.

(١) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٣٠٥، ٣٠٦.
(٢) المصدر السابق، ص٢١٩.
(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٦٤.

ومنها قوله أيضًا:

ارمِ الكتائبَ بي فإنَّكَ عالمٌ أنِّي أخو الهيجاءِ غيرُ مُذَمَّمِ

وعلامَ لا ألقى الفوارِسَ مُعلَمًا وعُلُوُّ جَدِّكَ عُدَّتي وعَرَمرَمي

أنا سيفكَ الماضي وليسَ بقاطعٍ سيفٌ إذا ما لم يُشَدَّ بِمِعصَمِ (١)

وهو في الإقدام كشبيهه عنترة؛ غير أنه يستمد دوره القيادي من رمزه القائد الأكبر الأمير سيف الدولة الحمداني، فيما يستمد عنترة دوره القيادي من عقدة العبودية واللون التي يعيشها في قبيلته ويود – بتقدمه هذا – لو يواريها أو ينساها هو أو قبيلته.

١.٦. شهود الوقائع:

قاد شاعرانا الفارسان معارك كثيرة؛ لأن اجواء عصريهما كانت أجواء حربية ملتهبة، ومن ثم فقد شهدا وقائع متعددة، حتى لا يكاد يخلو شعرهما من وصف معركة، أو فخر بمقارعة، أو تباهٍ أمام فتيات القبيلة بالفروسية، أو ذكر أيامهم مع الأعداء.

ولا يكاد شاعرانا يختلفان عن بعضهما في سرد وقائع هذه المعارك وما دار فيها من صراع عنيف ومخاوف ونزال وكر وفر، ووصف للخيل ومراسها وعراكها، ولأدوات الحرب ودورها في تحقيق النصر.

فهذا عنترة ينقلنا في شعره من وقعة إلى وقعة، واحدة تلو أخرى في سردية واحدة، أو مجزأة في مقطوعات مستقلة، ومن مسروداته في وصف معاركه؛ هذه القصيدة التي بدأها ببكاء الحبيبة وسؤال الديار، ثم انتقل إلى وصف إحدى معاركه وهي واقعة (يوم قو) قائلًا:

نَأَتكَ رَقاشِ إلّا عَن لِمامِ وَأَمسى حَبلُها خَلَقَ الرِّمامِ

وَما ذِكرى رَقاشِ إذا استقرَّت لدى الطَّرفاءِ عندَ ابنَي شِمامِ

وَقَفتُ وَصُحبَتي بِأُرَينِباتٍ عَلى أَقتادِ عوجٍ كَالسِّمامِ

(١) المصدر نفسه، ص٣٧٩.

فَقُلتُ تَبَيَّنوا ظُعُنًا أراها تَحُلُّ شُواحِطًا جُنحَ الظَلامِ

لَقَد مَنَّتكَ نَفسُكَ "يَومَ قَوٍّ" أحاديثَ الفُؤادِ المُستَهامِ

وَقَد كَذَبَتك نَفسُكَ فاكذِبَنها لمِا مَنَّتكَ تَغريرًا قَطامِ (١)

ومثل ذلك قول أبي فراس مفتخرًا بكثرة ما خاض من الوقائع حتى غدت عادة ضرورية له كالطعام والشراب:

وَلا تَصِفَنَّ الحَربَ عِندي فَإِنَّها طَعامِيَ مُذ بِعتُ الصِّبا وَشَرابي

وَقَد عَرَفَت وَقعَ المَسامِيرِ مُهجَتي وَشُقَّقَ عَن زُرق النُصولِ إِهابي (٢)

ويقول في أخرى مذكّرًا بكثرة وقائعه مع الروم:

جمعتُ سيوفَ الهندِ من كل بلدةٍ وأعددتُ للهيجاءِ كل مُجالِدِ

وَأَكثَرتُ لِلغاراتِ بَيني وَبَينَهُم بَناتِ البُكَيرِيّاتِ حَولَ المَزاوِدِ (٣)

ويسرد في قصيدة أخرى جملة من وقائعه وغزواته برفقة ابن عمه الأمير سيف الدولة؛ بعد أن وقف واستوقف، وبكى واستبكى – تمامًا كأبي الفوارس على الرغم من قرون تفصل بينهما– ثم انتقل إلى الفخر بنفسه ودولته وقبيلته تغلب، ثم وصف موقعتهم مع الخصوم قائلًا:

أَبَت عَبَراتُهُ إِلّا انسِكابا وَنارُ ضلوعِهِ إِلّا التِهابا

وَمِن حَقِّ الطُلولِ عَلَّي أَلّا أُغِبَّ مِنَ الدُموعِ لَها سَحابا

وَما قَصَّرتُ في تَسآلِ رَبعٍ وَلَكِنّي سَأَلتُ فَما أجابا

قَطَعنَ إِلى (الجِباةِ) بِنا (مَعانًا) وَنَكَّبنَ (الصُبَيرةَ) وَ(القِبابا)

(١) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٢٤٠- ٢٤٢.
(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٢٩.
(٣) المصدر السابق، ص٨٣.

وَجاوَزنَ (البَدِيَّةَ) صادِياتٍ يُلاحِظنَ السَرابَ ولا سَرابا
وَقادَ (نَدي بنُ جَعفَرَ) مِن (عُقَيلٍ) شُعوبًا قَد أسلنَ بها الشِّعابا
فما كانوا لَنا إلّا أُسارى وَما كانَت لَنا إلّا نِهابا
وَشَدّوا رَأيَهُم بِبَني قُرَيعٍ فَخابوا لا أبا لَهُم وخَابا (١)

ثم ينتقل الى الفخر بالنصر في هذه المعارك، ولا يلبث أن يسرد وقائع أخرى مع بني قشير ونمير وبني المهنا وبلاد الحيران وتدمر والصحصحان والسماوة والصباح والجولان، وغيرها ممن لاقوا في تلك البلدان التي ساحت فيها خيولهم تستعيد بها هيبة الدولة الحمدانية:

ديارُهُمُ انتَزَعنَاهَا اقتِسارا وَأَرضُهُمُ اغتَصَبناها اغتِصابَا
إذَا مَا أَنفَذَ الأُمراءُ جَيشًا إلى الأعداءِ أَنفَذنا كِتابَا
أنا ابنُ الضَّارِبينَ الهامَ قِدْمًا إذا كرِهَ المُحامُونَ الضِّرابَا
أَلَم تَعلم وَمِثلُكَ قالَ حَقًّا: بِأَنِّي كُنتُ أثقَبَها شِهابا (٢)

وقد بنى الشاعر وصفه لهذه الوقائع على أحداث مترابطة متماسكة بين بداية ونهاية، في مقاطع تسرد تحولات الحدث التي ينتظمها منطق التعاقب الزمني بواو العطف وأسلوب الشرط.

وفي منافرة له مع دمستق الروم حين عيره بأن العرب أصحاب كتب وأقلام وليسوا أصحاب سيوف وحروب؛ يرد عليه أبو فراس قائلًا:

أتزعمُ يا ضَخمَ اللغاديدِ أنَّنا ونحنُ أسودُ الحربِ لا نعرفُ الحَربا؟ (٣)

واسترسل فيها بذكر جملة من الوقائع مع الروم حتى انتهى إلى قوله مفتخرًا:

(١) المصدر السابق، ص١٣، ١٤.
(٢) المصدر السابق، ص١٦.
(٣) المصدر السابق، ص٣٦.

بِأقلامِنا أُحجِرتَ أم بسُيُوفِنا وأُسدَ الشَّرَى قُدْنَا إليك أَمِ الكُتْبَا؟

تَرَكنَاكَ في بَطنِ الفَلاةِ تَجُوبُها كَمَا انتَفَقَ اليَربوعُ يَلتثِمُ التُّرْبَا (١)

وواضح سعي الشاعرين في النصوص السالفة إلى إثبات جدارتهما بالقيادة، وخبرتهما في القتال والفتك، ورسوخهما في الفروسية، وفرادتهما في تحقيق النصر، وذلك من خلال سرد الوقائع الحربية التي شاركا فيها، وفوز قومهم في المعارك التي خاضاها، وتعداد كثرة خيبات العدو وقتلاه على أيديهما.

2. **القيم الاجتماعية للفروسية عند الشاعرين:**

2.1. **قيم تجاه المرأة (ذوات الأرحام- الحبيبة – الأسيرة):**

تمثلت القيم النبيلة لشاعرَينا الفارسَين تجاه المرأة أمًا، وزوجةً، وحتى الأسيرات منهن، في الاحترام والتوقير، والحب، على تباين بينهما في درجة توافر هذه القيم؛ نظرًا لاختلاف المواقف والاحوال التي عاشها كل واحد منهما.

٢.١.١. ذوات الأرحام:

٢.١.١.١ المرأة الأم:

على الرغم من أن أُمَّ كل واحد من شاعرينا تنتمي إلى جنس غير عربي (الحبشة/ الروم)؛ فإن العصر العباسي يختلف عن العصر الجاهلي في عصبية العربي لجذوره وعاداته وتقاليده الاجتماعية؛ إذ ساوى الإسلام بين الاجناس الإنسانية أجمع بتلك القاعدة الربانية الخالدة: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (الحجرات١٣)، ومن ثم لم نجد في تصوير أبي فراس من قلق وألم وضيق على حال أمه كما وجدناه عند عنترة، بل نجد فخرًا تلقائيًا بانتسابه لأخواله الروم حيث قال:

وأعمامي (ربيعةُ) وهْيَ صِيدٌ وَأخْوالي (بَلَصْفَرُ) وَهْيَ غُلْبُ (٢)

(١) المصدر السابق، ص٣٧، ٣٨.
(٢) المصدر السابق، ص٢٨.

وربما ما كنّا لنجد شيئًا من شعر أبي فراس يذكر فيه أمه لولا أسره من قبل أخواله الروم؛ إذ وصف ما لقاه منهم ومن أعمامه العرب بقوله:

إذا خِفتُ مِنْ أخوَاليَ الرّومِ خُطّةً ... خوفتُ منْ أعماميَ العُرْبِ أرْبَعا [1]

ومن ثم تشكلت علاقته بأمه بصورة أجلى في محبسه بالقسطنطينية:

لولا العَجوزُ بِمَنبَجٍ ما خِفتُ أسبابَ المَنِيَّه
أَمسَت بِمَنبجَ حُرَّةٌ بِالحُزنِ من بَعدي حَرِيَّه
لا زالَ يَطرِقُ مَنبِجًا في كُلِّ غادِيَةٍ تَحِيَّه
أوصيكِ بِالصَبرِ الجَميـ ـلِ فَإِنَّهُ خَيرُ الوَصِيَّه [2]

وهو هنا يتناص مع شعر أسير آخر ممن أسرهم الروم هو (ضرار بن الأزور)، الذي أشجاه ذكر أمه فقال:

وما بي وأيمُ اللهِ موتي وإنَّما تَركتُ عَجوزا في المهامَةِ والقَفرِ
ضعيفةَ حالٍ مالها من جَلادةٍ عَلى نائباتِ الحادِثاتِ التي تَجري
تعوَّدها حبُّ القفارِ مُقيمةً على الشَّيْحِ والقَيصومِ والنَّبتِ والزَّهرِ
وكنتُ لها رُكنًا تُعدُّ رِحالُهُ وأُكرِمُها جَهدِي وإن مَسَّني فَقرِي
وأُطعِمُها مِن صيدِ كَفِّي أَرانِبًا من الوحشِ واليربوعِ والظَّبيِ والصَّقرِ [3]

فهما لا يهابان موتهما على أي حال جاء، وإنما يخشيان على أمهاتهما معاناة ألم الفقد وضنك العيش، وشأن هذا أن يذكي في نفس الشاعر الأسير إحساسه بالغربة والكآبة

(١) المصدر السابق، ص٢٤٧.
(٢) المصدر السابق، ص٤٣٣- ٤٣٥.
(٣) فتوح الشام، أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي (ت: ٢٠٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٢٨٣.

ومذلة الأسر[١]، كما أن الأشعار من هذا النوع تأتي أكثر من غيرهـــا تمثيلًـــا للعواطـــف الصادقة والخلجات النفسية التي يندفع معها الشاعر إلى تذكر ما صنعه من مآثر لمواجهة حالة الانهزام التي يعيشها[٢].

ومن المحبس يكتب له صديق ويوصيه بالصبر فيرد عليه بأن هذا ما ربته أمه عليه من الفداء وأعدته لمثل هذه النهايات:

وقد عَلِمَت أمِّي بأنَّ مَنِيَّتي بحدِّ سِنانٍ أو بحدِّ قَضيبِ [٣]

وهو يخلد هذه الأم المفجوعة بولدها في مطولاته التي قالها وهو في سجنه أســـيرا، فحين ذهبت أمه إلى سيف الدولة تطلب مفاداته لابنها الأسير؛ لم يستجب سيف الدولة لها، ولم يطيِّب خاطرها؛ فاعتلَّت، فعزَّ على أبي فراس مرضها، وحزَّ في نفسه ذلك الكمد الذي لقيته أمه، فكتب إلى سيف الدولة يقول:

يا حَسرةً ما أكادُ أحمِلُها آخِرُها مُزعِجٌ وأَوَّلُها

عَليلةٌ بالشآمِ مُفرَدَةٌ باتَ بأيدي العِدا مُعَلِّلُها

تُمسِكُ أحشاءَها عَلى حُرَقٍ تُطفِئُها وَالهُمومُ تُشعِلُها[٤]

ثم يستطرد متوجعا ومخاطبا الركبان:

يا أيُّها الراكبانِ هل لكُما في حَملِ نجوى يَخِفُّ مَحمَلُها

نولا لها إن وَعَت مَقالَكُما وإنَّ ذِكري لها لَيُذهِلُها

يا أُمَّتَا هذهِ مَنازِلُنا نَترُكُها تارةً وننَزِلُها

(١) ينظر: شعر الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام: دراسة نفسية، فوزية شناشر، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم اللغة العربية، المركز الجامعي العربي بن مهيدي- أم البواقي، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص٨٢.

(٢) ينظر: النفسية الساخطة في روميات أبي فراس الحمداني، حنان أحمد عبدالله السيد، حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق، مج٣١، ع١، (766- 657)، ٢٠١١م،ص٦٦٨.

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٣٥.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٣٠.

يا أُمَّتا هذهِ مواردُنا عَلُّها تارةً ونَنهَلُها (١)

وبهذا النغم الاستهلالي المتوجع وصيغته المشتقة والمركبة من (ياء النداء) واسم الأم مقرونًا بلاحقتي التاء والألف: (يا أمّتا)، وتكراره في مطلع البيتين؛ يكشف الشاعر عن شدة حزنه وكمده "فقد جعل نفسه قريبًا من أمه وإن كان ذلك نفسيًا، ليطمئنها ويوصيها بالثبات وعدم اليأس"(٢).

ويكرر الشاعر هذا المنحى التوجعي في بكائياته لأمه الموجوعة به والموجوع بها في رسالة بثها لها من سجنه قائلًا:

مُصابي جَليلٌ والعَزاءُ جَميلُ وظَنِّي بأنَّ اللهَ سوفَ يُديلُ

وأَسرٌ أقاسيهِ وليلٌ نجومُهُ أرى كلَّ شيءٍ غَيرَهُنَّ يَزولُ (٣)

ثم ينطلق إلى التعبير عن شفقته على أمه، وأن بكاءها يؤلمه أشد من ألم السجن:

وإنَّ وَراء السِّترِ أمًّا بُكاؤُها عَلَيَّ وإن طالَ الزَّمانُ طَويلُ (٤)

لقد نسيه الأصحاب والأحباب ولم يبق له سواها وفاءً ودعاءً وذكرا؛ فلذا هو يطلب منها التصبر في ثلاثة أبيات استهلها بندائها مكررًا في كل بيت لفظة (الصبر):

فيا أُمَّتا لا تعدَمي الصَّبرَ إِنَّهُ إلى الخَيرِ والنَّجْحِ القَريبِ رَسولُ

ويا أُمَّتا، لا تُحبِطي الأَجرَ إِنَّهُ عَلى قَدرِ الصَّبرِ الجَميلِ جَزيلُ

ويا أُمَّتا، صَبرًا فكلُّ مُلِمَّةٍ تَجَلَّى عَلى عِلّاتِها وتَزولُ (٥)

لقد كانت أم أبي فراس هي كل حياته، فهي التي ربته صغيرًا، وتحملت مشاق تربيته وتنشئته مذ كان ابن ثلاث سنين حين موت والده، ولذلك رأيناه ينزع للحديث عنها

(١) المصدر السابق، ص٣٣١.
(٢) الذات والآخر في روميات أبي فراس الحمداني، نوال براك الثمالي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٣٢ه ص٢٦.
(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٣١٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٣١٥.
(٥) المصدر السابق، ص٣١٦.

بود ورضا واعتراف بالفضل والحدب والخوف عليها، والإشفاق عليها من الضغط النفسي الذي تعانيه بسبب أسر الروم له، وشعورها بالغبن لعدم افتدائه من قبل سيف الدولة، هذا الضغط النفسي والتوتر هو الذي أودى بها في النهاية فماتت وما يزال ابنها في محبسه أسيرا(١).

وقبله كان عنترة وأمه، وقد تشكلت علاقته بها من قيم الرحمة والإشفاق والحنق على ما تعانيه من آلام بعضها بسبب منه، وبما عاناه من عنت قبيلته في رفض حاجاته الاجتماعية، ورفض إدماجه بالقبيلة باعتباره عضوًا فاعلًا فيها، وما كان يلقاه من تقدير عند الكرب واشتداد المكاره في وجه قبيلته، في مقابل ما يلقاه من عنت وتجاهل واحتقار وقت أمنهم وطمأنينتهم.

ويكشف شعره عن عدم شعوره بالإهانة تجاه أمه، بل نجده يفخر بكون أمه من الحبشة، فهو يواجه عقدته بما يحيلها إلى ميزة في أصله ونسبه، وهو أن سوادها يشبه سمر القنا التي هي جزء من فروسيته، لنستمع إليه يقول في الرد على أحد الذين عيروه بأمه السوداء:

فإن تكُ أمّي غُرابيةً من ابناءِ حامٍ بها عِبتَني

فإني لطيفٌ ببيضِ الظُّبا وسُمرِ العوالي إذا جِئتَني (٢)

وفي هذين البيتين مفارقة بديعة، قابل فيها بين سواد أمه وبياض سيف ابنها الذي أنجبته لكي يستل الأرواح.

ونراه في مقطوعة أخرى يتباهى باللون الأسود الذي يشكل رمزًا مقدسًا من رموز مناسك الحج وهو الحجر الأسود، في مقابلة عجيبة تخرس الحاطين من قدره المتقوّلين عليه وعلى أمه، ولا يكتفي بذلك بل يلحق نسب أمه بالنبي نوح – عليه السلام– :

يقدِّمُهُ فتًى من خيرِ عَبسٍ أبوهُ وأمُّهُ من آلِ حامِ

(١) ينظر: النفسية الساخطة في روميات أبي فراس الحمداني، مرجع سابق، ص٧٦٣.
(٢) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٣٣٩، ٣٤٠.

عجوزٌ من بني حامِ بنِ نوحٍ كأنَّ جبينَها حَجَرُ المقامِ (١)

بل نجده يميز نفسه عن أقرانه بما لا يمتلكون من صفاته، فإن حمي الوطيس يُعرَف الأصل من الفسل:

إنّي أنا عنترةُ الهجينْ
فَجَّ الأُنانِ قد علا الأنينْ
تُحصَدُ فيهِ الكَفُّ والوَتينْ (٢)

لقد صار ما يعيبونه به –إذن– مجالًا يفتخر به، وفق مبدأ كل القبائل تقره، وتسلّم به، وهو أن الولد الهجين أقوى من الولد القريب، وهكذا تتجلى قيم عنترة تجاه أمه ورفضه التخلي عنها أو التنكّر لها بسبب ما جرَّته عليه من سواد اللون وعبودية النسب.

وممن تقوم مقام الأم من النساء (سمية) خالة عنترة وزوجة أبيه، وتبدو علاقته بها مبنية على القسوة، لكنها تكشف في المقابل عفافه وبرَّه ومدى الاحترام الذي كانت تكنه له رغم ذلك، وشفقتها عليه حين ألقت بنفسها وهي تبكي وتحوطه من تلك العصا الغليظة التي انهال أبوه بها على جسده بسبب تحريضها عليه، ومع كل تلك الجراحات التي جناها لم يتبدل موقفه من خالته ولا من أبيه بل صرح بالتسليم لهما والبر بهما قائلًا:

المالُ مالُكمُ والعبدُ عبدُكُمُ فهل عذابُكِ عني اليومَ مَصروفُ؟ (٣)

ويصف لحظة بكائها وإحاطتها به لتحجب عنه عصا أبيه قائلا:

أمِن سُمَيَّةَ دَمعُ العينِ تَذريفُ لو أنّ ذا منكِ قبلَ اليومِ مَعروفُ؟
تجلَّلَتنيَ إذ أهوى العَصا قِبَلي كأنَّها صَنَمٌ يُعتادُ مَعكوفُ (٤)

(١) المصدر السابق، ص٢٤٥.
(٢) المصدر السابق، ص٣٢٦.
(٣) المصدر السابق، ص٢٧٠.
(٤) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

إنه يتحدث عنها هنا مستغربا من حنانها عليه في تلك اللحظة العصيبة، وهو ما لم يعهده منها قبل ذلك، ممتنا لها على هذا الصنيع الحسن، وثباتها نيابة عنه أمام التعنيف الجسدي من أبيه، حتى بدت مثل صنم حجري لا يحس بتلقي الضربات ولا يلقي لها بالا.

٢.١.١.٢ المرأة الابنة:

تفرّد بذكرها أبو فراس دون عنترة؛ إذ قال مودعًا إياها حين أحس بدنو أجله وهو خارج لخوض إحدى المعارك:

أُبُنَيَّتَى لا تحزنى كلُّ الأَنام إلى ذَهاب
أَبُنَيَّتي صَبرًا جَميـ ـلًا لِلجَليلِ منَ الصِّعابِ
نوحي عَلَيَّ بِحسرةٍ مِن خَلفِ سِترَكِ والحِجابِ
قولي إذا نادَيتِني وَعَييتِ مِن رَدِّ الجَوابِ:
زَينُ الشَّبابِ أبو فِرا سٍ لم يُمَتِّع بِالشبابِ (١)

وعلى الرغم مما تحمله هذه الوصية من تناقض بين حثه إياها على عدم الحزن عليه، وحثه إياها على النواح عليه بتحسر؛ فإنه يعهد إليها هنا ألا تنساه من صالح تذكرها، وأن تتأسى به في صبره الجميل أمام الخطوب من مهده إلى لحده.

2.1.1.3 **المرأة الأخت:**

نجد تفردًا بذكرها عند أبي فراس أيضًا، وذلك حين رثاها بإحدى قصائده قائلًا:

أتزعمُ أنَّكَ خِدنُ الوَفاءِ وقد حَجَبَ التُّربُ مَن قَد حَجَبْ
عَقيلتيَ استُلِبَت مِن يَدي ولمّا أَبِعَها ولمّا أَهَبْ
وكنتُ أقيكِ إلى أن رَمَتكِ يَدُ الدَّهر مِن حَيثُ لا أَحتَسِبْ
فلا نَفَعَتني تُقاتي عَلَيكِ ولا صَرَفَت عَنكِ صَرفَ النُّوَبْ
فلا سَلِمَتْ مُقلَةٌ لم تَسُح ولا بَقِيَت لِمَّةٌ لم تَشِبْ (٢)

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٤٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٤١، ٤٢.

وفي الأبيات وجدٌ ظاهر وحزن صريح يكشف قيم أبي فراس في محبته لأرحامه وإشفاقه على أخته باختطاف يد المنون لها.

٢.١.٢. المرأة الحبيبة:

يصور عنترة في شعره كم عانى في سبيل الوصول إلى معشوقته (عبلة) ابنة عمه، فيما لم يرد في شعر أبي فراس ما يصور معاناته في سبيل الوصول إلى محبوبته أو تغنيه بها، ويرجع ذلك إلى أن عنترة عشق ثم حيل بينه وبين معشوقته، بسبب من عادات العرب في منع ظفر العاشق بمعشوقته إذا شاع فيهم تغزله بها وخبر عشقه إياها، زد على ذلك عادة المجتمع العربي في رفض زواج الحرة بالعبد، حتى لو كانت ابنة عمه كما هو حال شاعرنا عنترة.

ومع ذلك لم ييأس عنترة منها، بل ظلت في خلده ومخيلته تشاركه المعارك وترافقه في الأسفار، وتؤنسه في وحشته ووحدته، ومما يؤكد حضورها الدائم في وجدانه شيوع ذكرها في طيات كثير من قصائده الحربية وغير الحربية؛ فتارة يورد اسمها صريحًا باسم (عبلة)، وتارة بنسبتها إلى أبيها (يا بنة مالك) وحيناً لقبيلة أبيها (ابنة العبسي)، وربما دلّلها بالتصغير والتلطف قائلًا:

عَجِبَت عُبَيلةُ من فتًى مُتَبَذِّلٍ عارٍ الأشاجع شاحب كالمنصلِ (١)

وربما ناداها بنداء الترخيم تودداً وتقربًا قائلًا:

يا عبلُ كم من غَمرةٍ باشَرتُها بالنفسِ ما كادَت لَعَمرُكِ تَنجَلي (٢)

وربما ناداها بالتصغير وبالترخيم معًا:

لا تصرميني يا عُبَيلُ وراجعي فيَّ البَصيرةَ نظرةَ المُتأمِّلِ (٣)

وقد ظل عنترة محتفظًا بالحب والوفاء لعبلة رغم تعنت أبيها، وفي ذلك يقول:

عُلِّقتُها عَرَضًا وأقتُلُ قَومَها زَعمًا ورَبِّ البيتِ ليسَ بِمَزعَمِ (٤)

(١) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٢٥٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٥٥.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٥٤.
(٤) المصدر السابق، ص١٨٧.

وظل هو الفارس المحِبَّ الذي يتذكرها في أصعب المواقف وأحلك الظروف ويستدعيها في لهيب المعركة لتتخيل روائع أفعاله، وتشفي بتعجبها ودهشتها منها جراحه وأوجاعه:

عبلةُ قُومي تَرَكِ العيونْ

فَيَشتَفي مما بهِ الحزينْ

دارتْ على القومِ رَحى المَنونْ (١)

وهو يبرز لها فروسيته وقيمه الفريدة ليقنعها بأحقيته بها دون سواه، فيقول:

هلّا سألتِ القومَ يا ابنةَ مالكٍ إن كُنتِ جاهلةً بما لم تَعلمي

يخبركِ من شَهِدَ الوقائعَ أنَّني أَغشَى الوَغى وأَعِفُّ عندَ المَغنَمِ؟ (٢)

وهو في هذا كله يحاول إظهار شغفه بها، ومؤهلاته من قيم الفروسية التي لا يمتلكها سواه، حتى يتمكن حبه من شغاف قلبها، فتكون عونا لحبهما ولم شملهما، في مقابل تعنت أبيها وقومهما.

لقد ملأ عنترة ديار عبس والجزيرة العربية كلها بضجيج حبه، حتى تناقلت قصته مع عبلة الركبان وصارت حديث الزمان، وفي المقابل جاء غزل أبي فراس في شعره باهتًا، بل لا يكاد يذكر، ومن ثم فهو يقف على مسافة بعيدة من نظيره أبي الفوارس، رافضًا أن يسلم مقاليد قلبه لفتاة:

لقد ضَلَّ من تَحوي هَواهُ خَريدَةٌ وقد ذَلَّ من تَقضي عَليهِ كَعابُ

ولكنني والحمدُ للهِ حازِمٌ أَعِزُّ إذا ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقابُ

ولا تَملِكُ الحَسناءُ قَلبيَ كُلَهُ وإِن شَمِلَتها رِقَّةٌ وَشَبابُ (٣)

(١) المصدر السابق، ص٣٢٦.
(٢) المصدر السابق، ص٢٠٧- ٢٠٩.
(٣) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٢٢.

إن له قيمًا رافضة لإغراء المرأة الحبيبة، ولكنه قد ينخرط معها بحذر في علاقات ليلية سريّة خالية من الرقباء، وفي ذلك يقول:

لَبسنا رداءَ الليلِ والليلُ راضِعٌ إلى أن تردّى رَأسُهُ بمشيبِ
وبِتنا كَغُصنَي بانَةٍ عابَثَتهُما إلى الصبحِ ريحا شَمأَلٍ وجَنوبِ
بِحالٍ تَرُدُّ الحاسِدينَ بِغيظِهِم وَنَطرِفُ عَنا عَينَ كُلِّ رَقيبِ
إلى أن بدا ضوءُ الصباحِ كَأَنَّهُ مَبادي نُصولٍ في عِذارِ خَضيبِ (١)

وهو مع ذلك يحاول كبت هذه الرغبة اللذيذة في بناء علاقة مكشوفة مع المرأة الحبيبة، فيقول:

من لي بكتمانِ هوًى شادنٍ عيني لهُ عونٌ على قلبي؟ (٢)

لكن حزمه لا يلبث أن يفتر؛ فيمضي مع طرائد أخرى تتعدد أسماؤها ومواقف لقياها، منهن: ابنة القيسي، وأم عمرو، وسلمى، وأم مالك،...إلخ. (٣)

٢.١.٣. المرأة الأسيرة:

تتحد في هذ النموذج الأنثوي مواقف شاعرِينا الفارسَين، فنراهما ينزعان إلى تبني جملة من القيم النبيلة تجاه المرأة الأسيرة، كالعفة، والستر، والحنوّ، والحماية، من ذلك قول عنترة:

ونحفظُ عوراتِ النساءِ ونتَّقي عليهِنَّ أن يلقَينَ يومًا مَخازِيا (٤)

وقوله واصفًا حمايته نساء قومه من الوقوع في أسر الخصوم:

ونحنُ مَنَعنا بالفَروق نساءَنا نُطَرِّفُ عنها مُشعِلاتِ غَواشيا (٥)

وهو يخبرنا بأن هذه القيم ثابتة لا تتبدل تجاه المرأة الأسيرة، سواء أكانت من قبيلته أم من قبيلة أخرى معادية:

(١) المصدر السابق، ص٣٩.
(٢) المصدر السابق، ص٤٠.
(٣) ينظر: ديوان أبي فراس الحمداني، أبو فراس الحمداني، تحقيق: خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤م، ص٦٤، ١٦.
(٤) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٣٤٠.
(٥) المصدر السابق، ص٢٢٤.

ومُغيرةٍ شعواءَ ذاتِ أشلَّةٍ فيها الفوارسُ حاسِرٌ ومُقَنَّعُ

فَزَجَرتُها عن نِسوةٍ مِن عامِرٍ أفخاذُهُنَّ كَأَنَّهُنَ الخِروَعُ (١)

ويتبنى أبو فراس القيمة ذاتها، فحين يغزو بني كعب ويحوز أموالهم إذ بـــ(أم بسام) تسأله أن يطلق سراح نساء القوم؛ فيلبي طلبها قائلًا:

بالمرجِ إذ أمُّ بسّامٍ تُناشدني بناتُ عمِّكَ يا حارِ بنِ حَمدانِ (٢)

ويظفر في وقعة أخرى بنصر حاسم وسبي كثير، وإذ بنساء القبيلة يشفعن عنده فـــي رد أموال الخصوم، فيطلقها ويعوِّض الفرسان من حر ماله، قائلًا:

بُنيّات عمّي هنَّ ليسَ يَرينَني بَعيدَ التَّصافي أو قَليلَ التَّفضُلِ

شفيعَ النِّزاريّاتِ غَيرَ مُخيِّبٍ وَداعي النِّزاريّاتِ غَيرَ مُخذَّلِ

رَدَدتُ برغمِ الجَيشِ ما حازَ كُلَّهُ وكَلَّفتُ مالي غُرمَ كُلِّ مُضَلِّلِ (٣)

ويقول متباهيًا بحماية نساء قبيلته من الأسر:

ألا من مبلغ سرواتِ قومي وسيفَ الدولةِ الملكِ الهُماما

بأنِّي لم أدع فتياتِ قومي إذا حدَّثنَ جَمجَمنَ الكَلاما

شريتُ ثناءَهُنَّ ببذلِ نفسي ونارُ الحربِ تضطرمُ اضطِراما (٤)

ولهذا السبب لا ينقطع ثناؤهن عليه، ودعاؤهن له بالخير والسلامة:

وعدتُ أجرٌّ رُمحي عن مقام تُحدِّثُ عنهُ رَبّاتُ الحِجال

وقائلةٍ تقولُ: جزيتَ خيرًا قد حامَيتَ عن حَرَمِ المعالي (٥)

(١) المصدر السابق، ص٢٦٤.
(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٤٠٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٨٨.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٦٢.
(٥) المصدر السابق، ص٢٨٤.

إن الشاعرين هنا يعبران عما يمتلكانه من قيم الرحمة والعطف والإشفاق على الأنثى الضعيفة أيا كانت، وأن قوتهما وفتكهما إنما يتجهان إلى العدو الرجل المقاتل الذي يقاربهما أو يناظرهما جلَدًا وصلَفا وفروسية.

2.2. **موقف الشاعر الفارس من قادته (سيد قبيلته/ أمير الدولة):**

من يتأمل شعر الفروسية لدى شاعِرَينا؛ يتضح له حرصهما على تبني قيم الفروسية الاجتماعية ذات الصلة بالسادة والقادة، كالطاعة والاحترام والحب والوفاء وصدق الولاء، بل وصل بهما الأمر إلى احتمال الضيم والصبر على الخذلان الذي لقياه من علية قومهما، واجتناب مقابلة ذلك بالمثل.

ثمة –إذن– تشاكل كبير بين شاعرينا الفارسَين في علاقتهما القيمية بأسيادهما، فعنترة مدين بالطاعة لسادة قبيلته عبس وبخاصة لملكها (قيس بن زهير)، وأبو فراس مدين بالطاعة والخضوع والوفاء لأميره (سيف الدولة الحمداني)، وقد مكنتهما هذه الطاعة لسيديهما من أن ينالا ثقتهما، كما أن أوضاع الحروب والمعارك والغزو وفروسيتهما التي بدت مواكبة لهذه الأوضاع قربتهما من سيديهما أكثر فأكثر، ونتيجة لذلك استطاعا الوصول إلى مراتب قيادية عليا في الجيش، وقيامهما بمهام قتالية وعسكرية يعجز عنها أقرانهما.

وقد توثقت علاقة الفارسَين بسيديهما بناء على هذه المعطيات، ومن ثم تشكلت سمات اجتماعية اتصالية عبر أنغام الشعر تمثلت في قصائد المديح لسيديهما والفخر بهما، وإظهار الحب والولاء والسمع والطاعة لهما.

وتبعًا لقيم المحبة والطاعة والاحترام لسيد قبيلة عبس تولد لدى عنترة احترام سادة القبيلة ونظامها، ومحبة أهلها جميعًا رجالا ونساء، مع الالتزام بقيم الوفاء لهم، والذود عن حماهم، ومشاركتهم أفراحهم وأتراحهم ومناسباتهم، ومن هنا وجدناه يبكي سيدًا من بني عبس اسمه (مالك بن زهير) حين قتله بنو بدر، فيقول:

لله عينًا من رأى مثلَ مالكٍ عقيرةَ قومٍ أن جَرى فَرَسانِ

وكانَ فَتى الهيجاءِ يحمي ذِمارَها ويَضرِبُ عندَ الكَربِ كُلَّ بَنانِ (١)

ويقول في أخرى ممتدحًا قومه، ومفتخرًا بقبيلته:

ونِعمَ فوارسُ الهيجاءِ قَومي إذا عَلِقوا الأَعِنَّةَ بالبَنانِ

هُمُ قتلوا لُقَيطًا وابنَ حُجرٍ وأَردَوا حاجِبًا وابنَي أَبانِ (٢)

ومن هنا أيضًا رأيناه ينبري لحراستهم وقت الخوف، فحين كان بنو عبس ماكثين في مضارب بني كعب ليتحالفوا معهم، أزمع بنو كعب الغدر بعبس ليلًا، فبعثوا من يتعسس أحوالهم، وكان عنترة قد انتُدب لحراسة قومه، ويصل العسس فيجدونه يقظًا، ويحاولون التعلل بأعذار واهية لمجيئهم في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وعرف العسس أن بني عبس على حذر، وأنهم لن يتمكنوا منهم؛ فعادوا ليبلغوا قومهم بذلك، ومضى عنترة يخبر قيسًا سيد القبيلة فقرروا الرحيل، ويخلّد عنترة هذا المشهد المفعم بقيم التضحية والفداء والشعور بالمسؤولية تجاه أمن قبيلته وسلامتها، منشدًا:

قلتُ: منِ القومُ فقالوا: سَفَرَه والقومُ كعبٌ يَبتغونَ المَنكَرَه

تعلَّمي يا كعبُ وامشي مُبصِرِه ثم ارهبي مِنّي وكوني حَذِرَه (٣)

لقد أظهر عنترة الفارس مفارقة جلية في سلوكه الاجتماعي تجاه قومه سادةً وأهلًا؛ إذ لم يمنعه اضطهادهم المستمر له من إبراز قيم المودة والحب لهم جميعًا، على أن قيم تعامله الحسن معهم لم تكن دائمًا على ما يرام؛ فقد نشأت بينه وبينهم مواقف موجعة طفح فيها كيله، وضاق صبره وصدره، فاندفع يعبر عنها في شعره ببكاء وشكوى، أو بغضب وثورة، من ذلك خبر انهزام عبس أمام بني تميم حتى اضطروهم إلى واد ضيق، وأوشك بنو تميم أن يلحقوا بعبس، فوقف عنترة في حلق الوادي مدافعا عنهم حتى تمكنوا من الانسحاب، ونجى الناس، فلما خرجوا من المضيق والضيق قال الملك (قيس بن زهير):

(١) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٣١١، ٣١٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٩٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٢٩.

"والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء"، يقصد عنترة، فاستاء عنترة لذلك وتألم واندفع يقول:

طالَ الثَّواءُ على رسومِ المَنزلِ بينَ اللُكيكِ وبينَ ذاتِ الحِرمِلِ

فوقفتُ في عَرَصاتِها مُتَحيِّرًا أَسَلُ الديارَ كفعلِ من لم يَذهَلِ

لعبت بها الأنواءُ بعدَ أنيسِها والرامساتُ وكلُّ جَونٍ مُسبِلِ (١)

ففر إلى الديار والآثار وضرب صفحًا عن واقعه هروبًا وحزنًا من احتقار مليكه إياه، والتعليل لبكائه ببكاء الحمامة فكلاهما مجروح موجوع:

أفَمِن بكاءُ حمامةٍ في أَيكةٍ ذَرَفَت دموعُكَ فوقَ ظهرِ المَحمَلِ (٢)

وفيها يعرض بقيس بن زهير الذي كان مشهورًا بنهمه في الأكل فيقول:

ولقد أبيتُ على الطَّوَى وأظَلُّهُ حتى أنالَ بهِ كريمَ المأكَلِ (٣)

ثم يفخر بفعله وبطولته وحجزه الأعداء دون قبيلته، ولا يعبأ بما يقال عنه أو يذم به:

إذ لا أبادرُ في المضيق فوارسي أو لا أُوَكَّلُ بالرعيلِ الأوَّلِ

إنّي امرُؤٌ مِن خَيرِ عَبسٍ مَنصِبًا شَطرِي، وَأَحمي سائِري بالمُنصَلِ

إن يُلحَقوا أكرُر، وَإِن يُستَلحَموا أشدُد، وَإِن يُلفَوا بِضَنكٍ أَنزِلِ (٤)

ونجد أبا فراس يتغنى بالقيم الاجتماعية نفسها تجاه أميره سيف الدولة، حتى إنه ليعد نفسه سيفًا لأميره سيف الدولة فيقول:

(١) المصدر السابق، ص٢٤٦، ٢٤٧.
(٢) المصدر السابق، ص٢٤٧.
(٣) المصدر السابق، ص٢٤٩.
(٤) المصدر السابق، ص٢٤٨- ٢٥٠.

يا ضاربَ الجيشِ بي في وسطِ مَفرَقِهِ لقد ضَربتَ بِنفسِ الصَّارِمِ العَضبِ

لا تحرُز الدِّرعَ عني نفسَ صاحِبِها ولا أُجيزُ ذِمامَ البيضِ واليَلَبِ

ولا أعودُ بِرمحي غيرَ مُنحَطِمٍ ولا أَروحُ بِسيفي غيرَ مُختَضِبِ

حتى تقولَ لكَ الأعداءُ راغمةً: أضحى ابنُ عمِّكَ هذا فارِسَ العَرَبِ (١)

ويقول في أخرى مادحًا أميره ورمزه البطولي سيف الدولة:

ولما ثارَ سيفُ الدينِ ثُرنا كما هَيَّجتَ آسادًا غِضابا

أسنَّتُهُ إذا لاقى طِعانا صَوارِمُه إذا لاقى ضِرابا

صنائعُ فاقَ صانِعُها ففاقَت وغَرسٌ طابَ غارِسُهُ فَطابا

وكنَّا كالسِّهامِ إذا أصابَت مَراميها فصاحِبُها أصابا (٢)

بل إنه يوغل في مدى حبه لهذا الأمير وتولهه به في تلك الأبيات التي تضارع معاني الغزل الصوفي في الشعر العربي، إذ يقول:

فليتكَ تحلو والحياةُ مريرةٌ وليتكَ ترضى والأنامُ غِضابُ

وليتَ الذي بيني وبينَكَ عامِرٌ وبيني وبينَ العالمينَ خَرابُ

إذا نِلتُ منكَ الودَّ فالكُلُّ هَيِّنٌ وكُلُّ الذي فوقَ التراب ترابُ (٣)

ولأبي فراس بكائيات كثيرة كبكائيات عنترة؛ دفعه إليها ما واجهه من نكران لجهوده وتنكر لمواقفه وتضحياته في خدمة الدولة وأميرها سيف الدولة، ومنها قوله:

أتَعُزُّ أنتَ على رسومِ مَغانِ فأُقيمَ للعَبراتِ سوقُ هوانِ؟ (٤)

ثم يقف ويستوقف كعنترة قائلًا:

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٤٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٤، ٢٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٠٧.

يا واقفانِ معي على الدارِ اطلُبا غيري لها إن كُنتما تَقِفانِ

منَعَ الوقوفَ على المنازلِ طارقٌ أَمَرَ الدُّموعَ بِمُقلَتي ونَهاني

فَلَهُ إذا وَنَتِ المدامعُ أو هَمَت عِصيانُ دمعي فيهِ أو عِصياني

إنّا لَيَجمَعُنا البُكاءُ وكُلُّنا يبكي على شَجَنٍ من الأشجانِ (١)

فما يستثير غزير بكائه هنا هو هواه الذي محضه لسيف الدولة، وإفناء نفسه في سبيل مجده وملكه أميرًا ونديمًا وشاعر بلاط، ثم ذلك التجافي الذي وجده من سيف الدولة والإبطاء في افتدائه من الأسر.

ولا غرابة – من ثم– أن تبدو هذه البكائية متميزة عن بكائيات عنترة على الرغم من شدة المعاناة التي عاشها عنترة، ولعل ذلك يرجع إلى تباين بيئتي الشاعرين وطبعيهما، فعنترة بدوي الطبع صلب المراس، فيما تطبَّع أبو فراس بطابع المدنية والرقة والترف والحضارة التي عاشها في بيت الإمارة، وفي مدائن الشام، والحياة المترفة التي اكتسبها أميرا مخدوما عزيزا كريما في (منبج) قبل أن يتحول إلى أسير ذليل.

ومما يلحظ في بكائياته أيضًا تلك الروح المؤمنة التي تسلي القلب الحزين وترجع الأمر والتقدير إلى الله تسليمًا وقبولًا، فتبعث في نفسه الصبر والرضا والقبول بواقع الحال:

ما لي جَزِعتُ منَ الخُطوبِ وإنَّما أَخَذَ المهَيمِنُ بعضَ ما أعطاني (٢)

وهي ميزة فارقة بينه وبين بكائيات عنترة، ويرجع ذلك إلى البيئة التي عاش فيها كل واحد منهما، فعنترة عاش في بيئة أمية جاهلية، فيما عاش أبو فراس في عصر إسلامي عرف أهله عقيدة الإيمان، وفي ذلك يقول:

ولكن إذا حُمَّ القَضاءُ على امرئٍ فليسَ لهُ برٌّ يَقيهِ ولا بَحرُ (٣)

(١) المصدر السابق، ص٤٠٧.
(٢) المصدر السابق، ص٤٠٨.
(٣) المصدر السابق، ص٢١٣.

وفي هذا البيت تسويغ لطيف لوقوعه في الأسر بإرجاع الأمر إلى القضاء والتسليم الإلهي(١).

ونجد عند أبي فراس مثل ما وجدناه عند عنترة من وفائه لقومه وسادته، غير مجازٍ لهم بما اقترفوه في حقه من ظلم أو جفاء، فهنّأ وعزّى ورثى واعتذر وسامح وتجلد وصبر، وكان أقصى ردود أفعاله العتاب، كما في الرسالة التي بعثها لسيف الدولة قائلًا:

زماني كُلُّهُ غَضَبٌ وَعَتبُ وَأَنتَ عليَّ والأيامُ إلبُ

فلا تحمِلِ على قلبٍ جريحٍ بهِ لحوادثِ الأيامِ نَدبُ

وزَندي وهْوَ زَندُكَ ليسَ يكبو ونَاري وهْيَ نارُكَ ليسَ تَخبو

وفَرعي فرعُكَ الزَّاكي المُعلّى وأَصلي أَصلُك السَّامي وَحَسبُ

فَقل ما شِئتَ فيَّ فَلي لِسانٌ مَلِيءٌ بالثناءِ عَليكَ رَطبُ

وعامِلني بإِنصافٍ وظُلمٍ تَجِدني في الجميعِ كما تُحبُّ (٢)

وهكذا واجه أبو فراس مجتمعه بقيم التسامح والتودد والصبر، ولم ينفد صبره، ولم يفض كيله، بل التزم منحى قيميًا واحدًا في سائر الأحوال التي عاشها اجتماعيًا في إطار دولته، وأظهر دليل على ذلك رائيته (أو بكائيته) التي سكب فيها عصارة مهجته رقة وتلطفًا لسيف الدولة إذ يقول:

أراكَ عَصِيَّ الدَّمعِ شيمَتُكَ الصَّبرُ أما للهَوى نَهيٌ عَلَيكَ ولا أَمرُ

نَعَم أنا مُشتاقٌ وعِندِيَ لَوعَةٌ ولكنَّ مِثلي لا يُذاعُ لَهُ سِرُّ (٣)

(١) ينظر: شعر جهاد الروم حتى نهاية القرن الرابع الهجري في موازين النقد الأدبي، عبدالله صالح العريني، سلسلة مشروع وزارة التعليم العالي لنشر ألف رسالة علمية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٧٠.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٢٨- ٢٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٠٩.

إنه لم يثُر ولم يتذمر في بعض المواقف كثورة عنترة وتذمره؛ ولعل سبب التباين بينهما في ذلك هو أن ثورة عنترة كانت نابعة من أنه واجه من سادته وقومه صنوف أذى هي أشد حدة وشراسة وعنصرية من نظيره أبي فراس، ابتداءً بعبوديته والاستنقاص منه، مرورًا بتعييره بسواد لونه ولون أمه، وانتهاء بحرمانه من تحقيق حلمه في الحب والزواج من ابنة عمه (عبلة)، إنها مسوغات كافية لعنترة ليثور، لكن أبا فراس كان غير مضطهد ولا محتقر، ولذا كانت ردود أفعاله متناسبة مع ما واجهه اجتماعيًا، وعلى الرغم من أنه عانى من تجاهل الأمير سيف الدولة إياه وبخاصة في محبسه حين كان أسيرا، فإنه كان حظيًّا عند سيف الدولة وغيره من الأمراء، بل كان هو نفسه أميرًا لمنبج، وقائدًا للجيوش في بعض المعارك بأمرٍ من ابن عمه سيف الدولة، الذي كان أيضًا زوجًا لأخت أبي فراس، وكان أبناؤه الأمراء أبناء أخته، فضلًا عن أنه كان شاعر بلاط الأمير ولسان غزواته ومعاركه مع الروم والقبائل الخارجة عن سلطان الدولة.

٢.٣. قيم التفاعل الاجتماعي:

عادة ما يتحلى الفرسان المثاليون بقيم الحدب على الآخرين والحب لهم وتفقد شؤونهم، سواء أكانوا أقارب أم أصدقاء أم خدامًا، وهو ما نجده عند شاعرَيْنا الفارسَيْن في أجلى صوره وأوفقها.

فمن أبرز قيم التفاعل الاجتماعي الإيجابي عند عنترة حدبه على إخوته لأمه، ووصله لهم بما يحصل عليه من مال وغنائم، وحرصه على أن يُحسنوا التكيف مع مجتمعهم:

أبني زبيبةَ ما لِمُهرِكُمُ مُتخَدِّدًا وبُطونُكُم عُجُرُ؟ (١)

ويحمل أبو فراس القدر نفسه من الحرص والود الأسري، فنراه يبوح بحبه الأخوي في رسالة لأخيه (سعيد أبي الهيجاء)، باكيًا من تباريح الشوق:

(١) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٣١٥.

تُقِرُّ دُموعي بِشَوقي إليكَ وَيَشهَدُ قلبي بِطولِ الكَرَبْ

بِإني عَلَيكَ لَجاري الدُّموعِ بِإني عَلَيْكَ لَصبٌّ وَصَبْ (١)

فإذا نأت عن التعبير الدموع نابت عنها الدماء، وفي ذلك يقول مخاطبًا أخاه (أبا الهيجاء) أيضًا:

ولستُ مَلُومًا إن بَكَيتُكَ مِن دَمي إذا قَعَدَت عنّي الدُّموعُ السَّواكِبُ

وأنتَ أخٌ تصفو ونَصفو وإنّما الـ أَقارِبُ في هذا الزَّمانِ عَقارِبُ (٢)

وللصديق عند شاعرينا مقامه العالي وقدره الثمين، يقول عنترة في مواساة صديقه (عروة بن الورد) حين أسكروه ثم طلبوا منه تطليق زوجه فطلَّقها:

يا عروةَ بنَ الوردِ خيرَ عبسِ

أما تراني قد بذلتُ نفسي

للموتِ والثاراتِ دونَ عِرسي (٣)

يشاكل ذلك قول أبي فراس معبرًا عن حفظه وداد الصديق:

لئِن أَلفَيتَني مَلِكًا مُطاعًا فإِنَّكَ واجِدي عَبدَ الصَّديق (٤)

ومثلما يتحسر عنترة على أصدقائه ويبكيهم مؤبنًا:

كم فيهمُ لي من صديقٍ ماجدٍ أمسى ثوًى ولكلِّ جَنبٍ مَصرَعُ (٥)

يندفع أبو فراس إلى رثاء أحد غلمانه قائلًا:

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص١٩.
(٢) المصدر السابق، ص٣٤.
(٣) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٣٢٣.
(٤) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٢٦٩.
(٥) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٢٦٥.

ولقد وددتُ بأَن أَكونَ مكانَهُ تحتَ الترابِ وأَن يَكونَ مَكاني (١)

ويتأكد تواضعه لغلمانه في مراسلته لاثنين منهما حين كان في سجنه (٢).

لقد تميزت فروسية شاعرَينا اجتماعيًا بالتعالي على الصغائر وهفوات الأصدقاء، والاحتفاظ بقيم التواصل الحسن، يقول أبو فراس:

قُل لأحبابِنا الجُفاةِ رويدًا دَرِّجونا على احتِمالِ المَلالِ

أَحسِنوا في فعالِكُم أو أَسيئوا لا عَدمناكُمُ على أَيِّ حالِ (٣)

ويتميز أبو فراس عن عنترة بسعة علاقاته الاجتماعية ومتانتها، وبقلة خصومه، وبعلو مركزه الاجتماعي، أما عنترة فكانت تغلب عليه الرغبة في الانتقام للذات والمعاملة بالمثل، تمثل ذلك في الهجاء المقذع لبعض أبناء قبيلته، كالذي حدث بينه وبين (عمارة بن زياد)، فلم يتركه عنترة حتى سلخه ذمًّا؛ إذ يقول:

أَحَولي تَنفُضُ استكَ مِذرَوَيها لِتَقتُلَني فها أَنَذا عُمارا

متى ما نلتقي فَردَينِ تَرجُفْ روانِفُ إِليَتَيكَ وتُستَطارا (٤)

ولا شك في أن التباين بين الشاعرين في هذا المنحى الانفعالي، راجع إلى تباين طباعهما النفسية أولا على نحو ما أسلفنا، وإلى التأثيرات البيئية ثانيا، وإلى طبيعة العلاقة بين الشاعر وبعض أفراد مجتمعه سلبا أو إيجابًا.

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، مصدر سابق، ص٤١٦.
(٢) ينظر: المصدر السابق، ص٢٠٥، ٢٠٧.
(٣) المصدر السابق، ص٣١٠.
(٤) ديوان عنترة، مصدر سابق، ص٢٣٤.

الخاتمة:

مما سبق تحليله في هذا البحث؛ يمكن الخلوص إلى النتائج التالية:

١. أبرز البحث جوانب التشاكل والاختلاف في القيم الفردية والجماعية للفروسية عند الشاعرَيْن الفارسَيْن.

٢. تشاكل الشاعران الفارسان (عنترة بن شداد العبسي)، و(أبي فراس الحمداني)، في بعض القيم الفردية والجماعية، وتباينا في أخرى؛ وذلك تبعًا لتشاكل أو تباين طبيعتيهما النفسية والفكرية، ومؤهلاتهما العقلية والجسمية والنسَبية، ومراكزهما الاجتماعية، وعلاقاتهما بالآخر سائسًا ومسوسًا، وبيئتيهما الزمانية والمكانية والثقافية، ومقتضيات الأحوال والمواقف الحياتية المختلفة.

٣. من القيم التي تشاكلا فيها وتغنيا بها في أشعارهما: الشجاعة والبطولة، والنبل ومكارم الأخلاق، والنجدة والحمية، ومنازلة الأبطال وقبول تحدي الأقران، والقيادة، وشهود الوقائع، واحترام المرأة سواء أكانت من الأباعد أم من ذوات الأرحام، ومعاملتها – سواء أكانت حرة أم أسيرة– وفق قيم العفة، والستر، والحنوّ، والحماية، وإجلال قادة المجتمع وسادته، والحنو على الأقارب والأصدقاء.

٤. من القيم التي تفرد بها عنترة: التغزل بالمحبوبة، والشعور بعقدة النقص تجاه المرأة الأم، والتذمر أحياناً من وطأة الاضطهاد الاجتماعي.

٥. من القيم التي تفرد بها أبو فراس: التصريح بالحنو على المرأة الابنة، والمرأة الأخت، ورثاء الخدم من غلمانه، وعدم التذمر من وطأة الاضطهاد الاجتماعي.

المراجع:

- **الكتب:**

١. تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط١١، (د. ت).

٢. ديوان أبي فراس الحمداني، أبو فراس الحمداني، تحقيق: خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤م.

٣. ديوان أبي فراس الحمداني، أبو فراس الحمداني، عني بجمعه ونشره وتعليق حواشيه ووضع فهارسه: سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، بيروت، ١٩٤٤م.

٤. ديوان عنترة: تحقيق ودراسة، محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٧٠م.

٥. شعر جهاد الروم حتى نهاية القرن الرابع الهجري في موازين النقد الأدبي، عبدالله صالح العريني، سلسلة مشروع وزارة التعليم العالي لنشر ألف رسالة علمية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ٢٠٠٢م.

٦. ظاهرة حديث الشعر عن الشعر من العصر الجاهلي حتى العصر الأموي، عبدالعزيز بن عبدالله المجراشي، مطبعة سفير، الرياض، ١٤٣٣هـ.

٧. فتوح الشام، أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٨. كتاب الفروسية، شمس الدين أبو عبد الله بن القيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: مشهور بن سليمان، دار الأندلس، بيروت، ١٤١٧هـ.

٩. الماضي المشترك بين العرب والغرب: أصول الآداب الشعبية الغربية، أ. ل. رانيلا، ترجمة: نبيلة إبراهيم، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع ٢٤١، ١٩٩٩م.

١٠. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب المجذوب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.

- **الدوريات:**

١. الفروسية بين أبي فراس الحمداني والسعدى الألبيري: دراسة فنية، شيماء هاتو فعل البهادلي، مجلة آداب ذي قار، مج ١، ع٤، ٢٠١١م، (٨٤-٩٧).

٢. النفسية الساخطة في روميات أبي فراس الحمداني: عرض وتحليل ونقد، حنان أحمد عبدالله السيد، حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق، مج٣١، ع١، ٢٠١١م، (٦٥٧ -٧٦٦).

- **رسائل الماجستير والدكتوراه:**

١. الذات والآخر في روميات أبي فراس الحمداني، رسالة ماجستير غير منشورة، نوال براك الثمالي، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٣٢ه.

٢. شعر الروميات لأبي فراس الحمداني: دراسة أسلوبية، عايدة سعدي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٩م.

٣. شعر الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام: دراسة نفسية، فوزية شناشر، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم اللغة العربية، المركز الجامعي العربي بن مهيدي- أم البواقي، الجزائر، ٢٠٠٧م.

٤. ظاهرة الاغتراب في شعر عنترة بن شداد: دراسة موضوعية فنية، زهير بن عبدالله مدخلي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبدالعزيز، جدة، ٢٠٢٠م.

٥. الفروسية في الشعر بين أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ، منى بنت بخيت بن عويبد اللهيبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة، ٢٠٠٨م.